هل وصلتَ يا سعدُ قبلنا؟

عبد الحكيم حيدر

اليوم، في الخامس من أكتوبر/ تشرين الأول 2024، بعدما أوشك أن يلحق بالثمانين من عمره، رحل الكاتب المصري سعد الدين حسن، الموهوب وعزيز النفس حد الإفراط في التيه بوحدته، والوحيد دائماً بعيداً عن كل صخب، والمبتعد عن كل المواثد والجوائز والأضواء التي تهلّل لأهل الطرب ومطابخ السلسلات شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، مات الصامت والعزيز بأحزانه. الآن، هل وصل سعد إلى مبتغاه البسيط، حيث كانت مراضاته في الدنيا بأشياء بسيطة جداً، كأن ينحني قليلاً في أدب جمٍّ وحقيقيٍّ على كفّ هانم جميلة ويقبله بنبل. لا بدناءة، وذلك في خجل وشكر وامتنان، ثم يعود إلى مكانه، برنس حقيقي فقد كل أحبّته في غرق سفينةٍ ما، ولم يتبقّ له من ثروته سوى بعض ملابس، كأنّه كذلك. كان سعد يغيب عن القاهرة شهراً أو شهرين، أو يعمل سنوات ثلاث فقط كمطشجي في قطار مطروح في السبعينيات من القرن الماضي، يحمل الفانوس في ليل القطارات، ثم يترك عمله بعد تجربة ثرية. وكعادة سعد، يترك كل التجارب ويكتفي بلوعة القلب في أثناء تحديقه في وجه يمامة أو بنت صغيرة تحجل وسط البنات على أول قريته أو زهرة نابتة ما بين عيدان الفول أو حزانى ومجاذيب ومقاطيع ومقاهي السيد البدوي الغامضة والفقيرة وبداخلها البسطاء من أهل المكان في تساند وطيبة ومرح، وهي تجربة مُعاشة لم يقترب منها سعد. فقط يحكي إن أذن له القلبُ بالحكي في ساعات الصفاء، يحكي وكأنه يحكي عن جُرحه هو، لا ألم ما يحكيه أو يحكي عنه. سعد زاهد حياة، وزاهد كتابة رماه حظّه في دنيا الكتابة، واستظلّ بالقليل، تاركاً الصخب كله من التجارب وراء ظهره، وأخيراً استقرّ في «شبشير الحصّة»، قرية بعيدة بطنطا، بعدما احترس من القاهرة، وقاده الاحتراس إلى الوحدة والهجرة، إلى حدٍّ ما. بعدما مات أغلب الأصدقاء، وصارت القاهرة من غير أنس يليق بسعد. كان أمل دنقل يسأل عنه بعبارة شبه محفوظة: «هل وصل سعد يا جماعة؟». مكث في سنواته الأخيرة بجوار أولاد إخ له مات في شبابه، وكان يحنو على سعد كأب، وكان سامح إلى الاخ المتوفى في سنوات سعد الأخيرة مادة سلواه وضحكه وأساه لمرض سامح النفسي وتركه البيت يوماً أو يومين، ثم يعود مسروراً بعدما يكون قد قصّ شعره بطريقة غريبة أو اشترى بطيخة أو كلباً، فيضحك سعد وهو يحكي: «الولد يعذّبني بخوفي عليه... عفريت».

حياة سعد دائما كتابة ملقاة على قارعة طريقه، ولكن سعد لا يفتعل كتابة، بل يترك كل الحكايات قريبةً من فنجان قهوته، ويحكي عن نهر النيل أو عزبة الجسر أو تلك البنت التي تحجل على أول القرية أو مدافن القاهرة وأفاعيل التربي وتأجيره المقابر في قصته الجميلة «الدفنة»، سعد زاهد كتابة وزاهد حياة، ويزهد حتى في هوس المكاسب وطرائق اللحاق بها، سعد لا يحاول اللحاق إلا بسعد أو آخر قطار يخرج من محطّة مصر بعد الفجر إلى طنطا، فقط يجلس كمالك، حينما يأخذه الحنين إلى القاهرة التي يحترسها، صباحاً في المقهى ينتظر رؤية الأصدقاء، في أثناء، كانت القاهرة هي القاهرة وساعات الانتظار جميلة والحكي له سواقيه. انكسرت السواقي، سواقي الكلام، وخاصة بعدما مات يوسف إدريس الذي كان يحبّه لذلك الصفاء الذي يمتلكه سعد. مات يوسف إدريس وقبله أمل دنقل ومات أغلب أصدقاء سعد، فانكسرت أغلب أجنحته في القاهرة التي يحبّها ويحترس أيضاً منها، فاكتفى بابن أخيه سامح الريض نفسيا بقريتهم «شبشير الحصّة»، زاهد كتابة جاءت إلى القاهرة ليلاً من طنطا، ثم ودعها غير آسف على نجومها الزاهرة ومكاسبها، واكتفى بالمقاهي الغامضة وشرب القهوة بطنطا حول السيد البدوي والنسيان بمنادمة الأحبة إن وجدوا.

آسف، يا سعد، فقد تركت أنا القاهرة من سنوات سبع، أنا الذي لم أحترس منها مثلك أبداً، وكأنني كنت أعبرها ولا أراها ولا حتى أحدّق في مصيري فيها، تركتُها كي أتأمل عيون اليمام وهو حيران فوق الاسطح، تركتُها كي أتأمل وردةً تشبه جرحي، لأنني أبداً لا أعرف جرحك وخبايك وصمتك، تركتها لأن لي بقية حكايةٍ وبحثٍ عن بنتٍ حجلت لك على أول القرية، وكأنها كانت تحجل لي. تركتها كي أتأمل صبيح الحمام وهو يتلوّى تحت صدر أمه بعد القفس في الشمس، وأنا أقول: ها أنت الآخر تدخل تجربة الكون حيراناً مثلنا أيام كنّا ننتظر محبّتنا تحت سماء القاهرة التي كنت تألفها يا سعد وتحترسها. آسف، يا سعد، على فراقك من سنوات من دون أن أقول لك: قد لا نجلس سوياً يا سعد في هذا المكان مرّةً أخرى.

الشرق الأوسط الجديد في السياسات الأميركية

رانيا مصطفى

كانت استراتيجية واشنطن في المنطقة، منذ عهد إدارة الرئيس الأسبق أوباما، تقوم على تخفيض الحضور الأميركي في الشرق الوسط، والتركيز على تحشيد أساطيلها في الباسيفيك مقابل سواحل الصين؛ وأن تُوكل إلى حليفتها إسرائيل مهمّة قيادة المنطقة عبر تفوقها العسكري، ضمن ما عُرف بناتو عربي - إسرائيلي، يقام تحت حجّة مواجهة إيران وأذرعها الطائفية في المنطقة. اعتقدت إدارة بايدن، عشيّة 7 أكتوبر (2023)، أن الطريق معبّدة لإنجاز صفقة التطبيع بين الرياض وتل أبيب لتتويج مسار الاتفاقات الإبراهيمية التي بدأها سلفه ترامب، لكن حدث طوفان الأقصى والرد الإسرائيلي العنيف عليه في غزّة وتداعياته كشفت عن هشاشة أميركية، اقتضت من الدولة العميقة في واشنطن مراجعة سياساتها في الشرق الأوسط، فيما سُميت نقطة تحوّل في السياسات الأميركية. فقد جاءت اضطرابات الشرق الأوسط في أجواء دولية متوترة في أوكرانيا، وانشغال أميركي بمعاقبة روسيا ولجم صعود الصين، وفي عام انتخابي، تعثّر فيه بايدن وسحب ترشيحه، فيما جرى تقديم نائبته كامالا هاريس على عجل مرشّحة عن الحزب الديمقراطي الذي حصلت فيه انقسامات واضطرابات غير مسبوقة على خلفية الموقف من الاحتجاجات في الحرم الجامعي المؤيدة غزّة، ولم تستطع إدارة بايدن إقناع إسرائيل بتخفيف كلفة قتل المدنيين في غزّة، ولا إنجاز هدنة أو مبادلة الرهائن، وهناك انقلاب في الموقف العالمي الرسمي باتجاه إدانة إسرائيل، ومحاكم دولية ضد الدولة المارقة وحكّامها، وهذا يحرج موقف واشنطن الداعم إسرائيل، ويُضاف إلى ما سبق فتح إسرائيل جبهة لبنان، وحرب الصواريخ بين طهران وتل أبيب، ما يقلق واشنطن من اتساع رقعة الحرب، والتي تشكل وصمة عار في سجل بايدن، سيورّثها لترامب أو هاريس، إلا إذا استطاع كبح شهية إسرائيل المفتوحة أبعد من بتر أذرع طهران في المنطقة باتجاه ضرب المشروع النووي وتغيير النظام. كما أن عملية 7 أكتوبر وصواريخ حزب الله، والانتقام الإيراني الرمزي لمقتل قادة الحرس الثوري وحزب الله، ذلك كله يظهر نقاط ضعف في منظومة الردع الإسرائيلية - الأميركية، يضاف إلى ذلك قتل ثلاثة من طواقم الخدمة الأميركية في يناير/ كانون الثاني الماضي في هجوم على قاعدة في الركبان في الأردن. وهذا يدفع واشنطن باتجاه تعزيز قواعدها العسكرية في المنطقة، واستقدام منظومة ردع جديدة لحماية إسرائيل، ودعمها في استرداد هيبتها، التي هي هيبة واشنطن، بالتوازي مع مساعٍ لخفض التصعيد.

تدعم الولايات المتحدة إسرائيل بالسلاح النوعي في حربها ضدّ حركة حماس وحزب الله، ويبدو الأمر كأنها هي التي تقود هذه الحرب! بالتأكيد هي تريد القضاء على الجناح العسكري «لحماس»، وراضية عن انتقام إسرائيل من حزب الله، لكنها تخشى خطوات إسرائيل غير المحسوبة، والتي لا تراعي المصالح الأميركية، خاصة ما يتعلق بالرد على الهجوم الصاروخي الباليستي الإيراني الحاصل مطلع شهر أكتوبر/ تشرين الأول الجاري، وما سيترتّب عليه من تداعيات خطيرة. ليست واشنطن حالياً في وارد معالجتها. ليس المشروع النووي الإيراني من ضمن قائمة أهداف إدارة بايدن، لصعوبته؛ إذ يحتاج الأمر إلى قنبلة GBU 57 الأميركية ذات الـ12 طناً، وإلى طائرة الشبح B-2 لحملها، وهي السلاح التقليدي الوحيد القادر على اختراق التحصينات، حيث يتم تخصيب اليورانيوم بدرجة 60% في نطنز وفوردو تحت عشرات الأمتار من الصخور والبيتون. لكن بإمكان إسرائيل استهداف منشآت إنتاج أجهزة الطرد المركزي التي تستخدم في عملية التخصيب، إلا أن ذلك

> ليست تبعات استهداف النظام في طهران بالأمر السهل، لأنه سيعني تغييرات كبيرة في نفوذ القوى العظمى في المنطقة

لن يوقف المشروع النووي الإيراني. أما استهداف المنشآت النفطية الإيرانية (مثل جزيرة خرج التي يخرج منها 90% من النفط الإيراني معظمه إلى الصين) فهو ضربة قاتلة لاقتصاد طهران الهش، الذي يعتمد كلياً على تصدير النفط، بسبب العقوبات على الاستثمارات الخارجية. وهنا تراهن إسرائيل على احتجاجات شعبية تزعزع النظام في طهران، لكن واشنطن لا تدعم إسرائيل في هذا الخيار، بسبب تبعاته على أسعار النفط العالمية (إيران ثالث أكبر منتج للنفط في منظمة أوبك)، ومن الممكن أن تستهدف طهران حينها، عبر وكلائها في اليمن والعراق، منشآت نفطية في منطقة الخليج العربي، وهذا سيؤدّي إلى قفزات في أسعار النفط، وإرباك للمرشّحة الديمقراطية قبل شهر من الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة. أجمعت دول الخليج على الوقوف على الحياد، وإغلاق مجالها الجوي أمام الصواريخ الإسرائيلية، خاصة بعد تحذير إيران لها.

الأزمة الاقتصادية الخانقة في إيران هي ما دفعت المرشد الأعلى، علي خامنئي، إلى التهدئة واتباع سياسة عقلانية مع واشنطن، تتمثل في الأداء الدبلوماسي للرئيس الجديد مسعود بزشكيان. هو يريد العودة إلى الاتفاق النووي ورفع العقوبات عن بلاده التي تعتاش على بيع النفط بأسعار بخسة إلى الصين، لكن إيران استخلت الحرب الجارية في غزّة بدفع حزب الله إلى تصعيد مضبوط ضد إسرائيل منذ طوفان الأقصى، وهجمات من الحوثيين، وأراق تفاوض مع الأميركيين، لكن استهداف قيادات الحرس الثوري وحزب الله على مدى عام، ثم الضربة القاسية للحزب في لبنان آخر الشهر الماضي (سبتمبر/ أيلول)، واغتيال أمينه العام حسن نصر الله وربما خلفه هاشم صفي الدين، أفقدت طهران تلك الورقة، ودفعت بها إلى ردّ رمزيّ يظهر قدرتها على الوصول إلى العمق الإسرائيلي، يضاف إليه ردّ موجعٌ من حزب الله باستهداف مسيّرة لقاعدة غولاني، ضمن معركة إيرانية لتخفيف حجم التنازلات المطلوب تقديمها إلى واشنطن.

ليست تبعات استهداف النظام في طهران بالأمر السهل، لأنه سيعني تغييرات كبيرة في نفوذ القوى العظمى في المنطقة، فروسيا تريد حماية قواعدها في سورية، والصين مهتمة برعاية مصالحها الاقتصادية في الخليج، وقد تحقّق ذلك كله بسبب التراجع الأميركي في الشرق الأوسط، ولن تظلا متفرّجتين على تصعيد أكبر في الشرق الأوسط لمصلحة أميركا. حسابات واشنطن حذرة في الشرق الأوسط، ومشروعها بإنتاج شرق أوسط جديد تقوده إسرائيل ما زال مكبّلاً بعوائق كثيرة. ورغم أن الحرب قابلة للتوسع أكثر والانفلات في ظل حكومة إسرائيلية يمينية لا تملك حسابات عاقلة، إلا أن من الصعب على واشنطن توجيه هذا الانفلات لمصلحتها، لذلك تسعى إدارة بايدن إلى لجمه.

(كاتبة سورية)

مؤشّرات دالّة في رئاسيات تونس

انور الجمعاوي

أعلنت الهيئة العليا للانتخابات بتونس النتائج الأولية الرسمية لرئاسيات تونس 2024، وأخيرت بفوز المترشح قيس سعيد بعهدة رئاسية ثانية لخمس سنوات، وذلك باعتبار حصوله على مليونين و389 ألفا و954 صوتا من أصل مليونين و808 آلاف و545 مواطنا شاركوا في الانتخابات. وهو ما منحه نسبة 90,69% من الأصوات المودعة في صناديق الاقتراع. وحاز المرشح العياشي زمال، النائب السابق في البرلمان، ورئيس حركة «عازمون» على 7,35%. فيما تحصّل زهير المغزاوي، الأمين العام لحركة الشعب القومية الناصرية على 1,97% فقط من أصوات الناخبين. وأشارت هيئة الانتخابات إلى أن نسبة المشاركة في رئاسيات 2024، لم تتجاوز حدود 28,8% من مجموع من يحقّ لهم الاقتراع، وهي الأدنى في تاريخ انتخابات الرئاسة في تونس منذ ثورة 2011. وكان لافتاً أنّ 6% فقط من الشباب أدلوا بأصواتهم في الاستحقاق الانتخابي. وتحمل هذه المؤشرات طيّها خلفيات عدّة، ودلالات جمّة، ورسائل شتّى. لذلك نقف في مقام أوّل عند خلفيات ودلالات فوز سعيّد بنسبة عالية ومحدودية التصويت لمنافسيه. ونهتمّ في مقام ثان بأسباب اتساع دائرة المقاطعين للانتخابات الرئاسية الأخيرة، ورسائل الشباب العازف عن المشاركة في المعترك الانتخابي.

كان متوقعاً فوز قيس سعيّد بعهدة رئاسية ثانية، وهو استحقاق عمل عليه منذ زمن، وتأكّد ذلك بعد حركة 25 يوليو (2021)، وعبّر سعيّد في أكثر من مناسبة، بالتلميح أو التصريح، عن نيّته خوض غمار رئاسيات 2024 التي عدّها معركة «بقاء أو فناء» لمشروعه السياسي/ القاعدي، وأخير بعدم استعداده تسليم الحكم لمن اعتبرهم «غير وطنيين». ويمكن تفسير تجديد ثلثي معتبر من الناخبين الثقة في سعيّد بعدّة أسباب ذاتية وأخرى موضوعية، فالثابت أنّ الرجل كان وفيّاً للوزنامة الانتخابية التي أعلنها في ظلّ حكم التدابير الاستثنائية، وكثّف خلال السنة الانتخابية من زياراته الجهاتية للأحياء الشعبية والمناطق الطرفية، وتبنّى خطاب نقد المنظومة الحاكمة من داخلها، ناقداً تقصيرها في تأمين خدمات القرب للمواطن، خصوصاً ما تعلّق بتوفير الماء، والكهرباء، والمواد الغذائية الأساسية، والخدمات الإدارية. معلناً الحرب على لوبيات الفساد والاحتكار، فيما قريباً من الناس، متفاعلاً مع مشاغلهم اليومية. وهو ما عزّز مكانته في قلوب كثيرين يعتبرونه «ولد الشعب»، و«نظيف اليد»، وتصريحه ضد سطوة الإدارة والسياسات البيروقراطية القديمة. كما وعد الناس باسترجاع الأموال المنهوبة، وتطوير الشركات الأهلية، وتفعيل الصلح الجزائي، وإصلاح التعليم، وتحسين الأوضاع المعيشية للناس، وتمكين الشباب، وأصحاب الشهادات العليا، وإحداث مشاريع خدمية وطبية كبرى، وهي وعود تعلّقت بها القلوب. وركّز في خطابه الانتصالي خلال مدّته الرئاسية الأولى على إعلاء مسألة السيادة الوطنية، والدفاع عن القضية الفلسطينية، وتجذير الانتماء إلى الهوية العربية، والقول بوجود خطر داهم يتهدّد وحدة البلاد، واغتنم، بحسب مراقبين، جلّ فرص ظهوره الإعلامي والجماهيري ليُخوض حملة رئاسية معلنة أو غير معلنة ضدّ خصومه الذين حمّلهم مسؤولية أزمات البلاد المتفاقمة، ونعتهم بالعمالة، والخيانة، والاستقواء بالخارج، والتآمر على الدولة وعلى تجربته في قيادة البلاد. ومن ثمّة، دفع هذا الخطاب الشعبوي المؤسس للاستقطاب الثنائي، وعلى سردية الوعد الناعم، والخطر الداهم، ورفض التدخل الخارجي، الناس إلى التصويت لسعيّد، طلباً للاستقرار، وعلى أمل تحويل الوعد إلى إنجاز.

ورغم صعوبة الوضع الاقتصادي، وتدهور المقدرة الشرائية، وانحسار هامش الحريات العامّة والخاصّة بحسب مراقبين، وتراجع الخزّان الانتخابي لسعيّد بنحو أربعمائة ألف صوت مقارنة برئاسيات 2019، وتقلّص شعبيته نسبياً في محافظات ساحلية، مثل سوسة، والمنستير، ونابل، فإنّه حافظ على قاعدته الانتخابية الوازنة في القيروان، والقصرين، وسيدي بوزيد، وتطاوين وغيرها. وصوّت للرجل متحزّبون وغير متحزّبين، ومحافظون وغير محافظين. وخيّر جلّ المقترعين الاستمرارية مع سعيّد، ورأوا منحه فرصة زمنية جديدة لاختبار مدى قدرته على تحويل الحلم إلى واقع، والانتقال بالبلاد من الموجود إلى المنشود. أمّا من الناحية الموضوعية، فوجد قيس سعيّد الطريق سالكاً إلى قصر قرطاج، في ظلّ اعتقال وجوه معارضة بارزة، ومنع ترشّحهم من داخل السجن، ورفض هيئة الانتخابات تنفيذ قرار المحكمة الإدارية بإرجاع ثلاثة آخرين إلى السباق الرئاسي، فلم يجد نفسه في مواجهة منافسين يحظون بعمق شعبي واسع، أو تقف خلفهم ماكينة حزبية كبرى. يضاف إلى ذلك إسناد سعيّد بتنسيقيات مناصرة له، وانخراط بعض وسائل الإعلام العمومية والخاصّة في ترويج مشروعه السياسي مقابل تهميش ممثّلي الأحزاب المعارضة، فكلّ تلك العوامل ساهمت، ولو بشكل متفاوت، في صعود سعيّد ثانية إلى كرسي قصر قرطاج.

في المقابل، لم يتجاوز التصويت لصالح العياشي زمّال سقف 8% من أصوات الناخبين، لأسباب من بينها أنه خاض حملته الانتخابية من داخل السجن على خلفية ما نُسب إليه من شبهات تزوير، فتحوّلت تجربة خوضه غمار الرئاسيات من استحقاق سياسي إلى ملفّ قضائي، ولم تتح له فرصة مخاطبة الناس بشكل مباشر أو عبر وسائل الإعلام العمومية، فيما اكتفى أعضاء حملته بالدعاية له عبر شبكات التواصل الاجتماعي، ووسائل إعلام خاصة، ومن خلال ندوات صحافية محدودة. ولم يقوموا بأنشطة ميدانية وجاهية مكثفة للتعريف بهويته السياسية والبرامجية. وحاول أعضاء حملة زمّال استقطاب جمهور الأحزاب المعارضة، والوعد بالقطع مع مخرجات منظومة 25 يوليو (2021) في حال وصوله إلى الحكم، لكنّ تلك المحاولة فشلت، فقد قاطعت جلّ الأحزاب الوازنة الاستحقاق الرئاسي، ولم يدعُ سوى حزب «ائتلاف الكرامة»، وهو حزب محافظ، ذو شعبية محدودة إلى التصويت لفائدة الزمّال. فصبّت الأصوات الحزبية في خدمة سعيّد بشكل مباشر أو غير مباشر. فيما صوّت لرئيس حركة عازمون منتمون إلى الائتلجنسيا التونسية، والبورجوازية الصغيرة، وجامعيون، ورجال أعمال ومتعاطفون مع شعار المظلومية الذي رفعه أنصاره. ويبدو أنّ إحجام كثيرين عن انتخابه راجع إلى أنّه شخصية سياسية مغمورة، وليست له سوابق نضالية ضدّ الدولة القامعة، ويخشى بعضهم من انتخاب شخص لا يعرفونه، ولسان حالهم يقول: «رئيس تعرفه خير من رئيس لا تعرفه». أمّا زهير المغزاوي، فلم تتجاوز نسبة المصوّتين لصالحه 2% من المقترعين، ودلّ ذلك على محدودية شعبية حركة الشعب في الشارع التونسي. ويبدو أنّ نفور الناخبين عن المغزاوي راجع إلى عدم انسجام خطابه في علاقة بالمنظومة الحاكمة. فالرجل من بيْن الوجوه البارزة التي مهّدت لحركة 2021/07/25 وأيّدت مخرجاتها. فقد ابتدعت حركة الشعب فكرة حكومة الرئيس، ودعت إلى تفعيل الفصل الـ80 من دستور 2014، وباركت صدور الأمر الرئاسي عدد 117، وشاركت في الاستفتاء على الدستور الجديد، وحافظ المغزاوي على صورة الموالي لقيس سعيّد طيلة ثلاث سنوات تقريباً، لكن مع تنظيم الراديكاليات، تحوّل فجأة إلى معارض راديكالي لقيس سعيّد، وهو تحوّل لم يسلّم بصدقيته جلّ الناخبين، واعتبره بعضهم انتهازية سياسية، وردّة فعل على عدم قبول سعيّد بفكرة تشكيل حكومة سياسية، وعدم إشراكه الحركة في إدارة تجربة الحكم.

أمّا الجمهور المقاطع والعازف، فيمثل حوالي 71% من القاعدة الانتخابية، أي زهاء سبعة ملايين مواطن، يحقّ لهم الانتخاب. لكنّهم رفضوا ممارسة ذلك الحق الدستوري. وفعل المقاطعون ذلك لاعتقاد بعضهم بأن مسار 2021/07/25 انقلاباً، أو لاعتبارهم المسار الانتخابي شابته خروقات عدّة، من بينها انتهاك الحق في الترشح، وعدم تطبيق أحكام المحكمة الإدارية، أو لعدم قناعتهم بالهوية السياسية والبرامجية للمتبقي من الطبقة السياسية الحاكمة على كرسي قصر قرطاج، ويرون أنّهم لا يستجيبون لتطلّعاتهم. فيما يبدو جلّ العازفين عن التصويت من الشباب. فلم يشارك في العملية الانتخابية سوى 6% من هذه الشريحة العمرية. وهو موقف احتجاجي صامت من غالبية شبابية مهمّشة، يعتريها الإحباط من الطبقة السياسية عموماً ومنظومة 2021/07/25.

> يفترض بعد رئاسيات 6 أكتوبر أن تمارس مكوّنات الاجتماع السياسي الحاكمة والمعارضة نقدها الذاتي وتراجع حساباتها الخاطئة

ختاماً، يفترض بعد رئاسيات 6 أكتوبر أن تمارس مكوّنات الاجتماع السياسي الحاكمة والمعارضة نقدها الذاتي، وتراجع حساباتها الخاطئة، وتنتقل من التنافي إلى التحاور، ومن الإقصاء والإقصاء المتبادَل إلى مصالحة شاملة قوامها التسليم بحقّ الاختلاف، والعيش المشترك، من أجل بناء تونس جديدة.

(كاتب وأستاذ جامعي تونسي)

كاريكاتير عماد حجاج

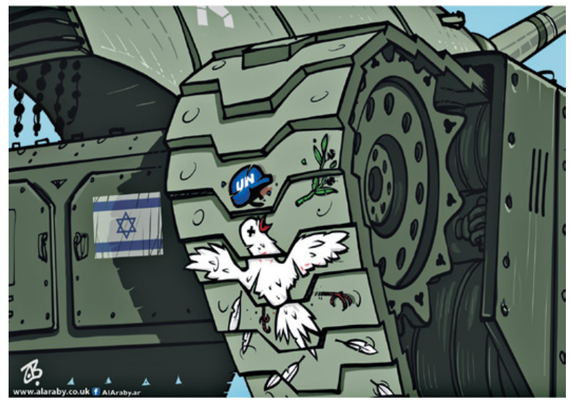

«دولة البكتاشية» حرب تلوح في الأفق

ممدوح الشيخ

فجأة، امتلأ فضاء الإعلام من «نيويورك تايمز» مروراً بمواقع رصينة مثل بي بي سي وبلومبرغ ونيويورك وغيرها كثير، بمعلومات وتحليلات عن دولة جديدة ستضاف إلى خريطة العالم (على مساحة 24 فداناً)، وستكون دولة للبكتاشية. وتسابقت المنصّات الإعلامية في التعريف بالطائفة التي يثير تاريخها جدلاً كثيراً، لكن السياق والتوظيف السياسي فرضا نفسيهما على هذا الموضع الذي يثير من الأسئلة الكثير.

المشروع، كما ورد في التغطيات الصحافية الكثيرة التي تناولته، عمل بهدف إلى نموذج لإسلام ذي مواصفات خاصة، أهمها: قبول إسرائيل وإشاعة نمط حياة يجعل التسامح مقترناً بانتهاك المحرّمات الدينية كسلوك مقبول دينياً. ويلخص زعيم البكتاشية بابا مودي رسالة دولته قائلاً: «نحن نستحقّ دولة، فنحن الوحيدون في العالم الذين يقولون الحقيقة عن الإسلام، ولا يخلطونه بالسياسة». وتتقاطع الفكرة مع سياقات عديدة دينية وسياسية، تشغل الغرب وإسرائيل، وبالقدر نفسه، نخبأ ثقافية وسياسية عربية تحارب منذ ما يزيد عن قرن لطي صفحة 1400 عام من فهم الإسلام وتفسيره.

وفي مشروع الدولة البكتاشية مفارقات، أولاها أن الذين حاربوا عقوداً بعض الدين من أن يكون فاعلاً سياسياً (من انقلاب عسكر الجزائر على نتائج انتخابات 1992، إلى «الثورة المضادّة» لإجهاض ثورات شعبية أتت بإسلاميين إلى السلطة)، هؤلاء يسعون الآن إلى إنشاء نموذج «واجهته دينية»! وثانية المفارقات أن «الإسلام الفردي» الذي يفكك أي روابط «أفقية» تشمل أشكالاً من التجمع أو التنظيم أو العمل الجماعي لتحقيق أي أهداف دينية، ينشئ «دولة» يحكمها زعيم طريقة صوفية، لتحقيق هذا الهدف، والمفارقة الثالثة أن جهوداً طويلة، فاشلة طبعاً، لنفي أن يكون في الدين أي حقيقة تتصف بالقداسة والثبات ولا تقبل التأويل، هم أنفسهم يدّعون أنهم وحدهم من يقولون الحقيقة عن الإسلام. وبميلاد هذه الدولة، سيشهد التنازع على التعبير عن الإسلام مرحلة شديدة الخطورة، وبخاصة أن الحاجة الماسّة إليها صهيونيًّا وغربيًّا يجعلنا نرجّح (على نحو قريب من القطع)، أنها ستكون موضوع جهد ترويجي كبير.

والسعي إلى إعادة بناء فهم المسلمين لإسلامهم (وبخاصة ثوابته العقائدية والشرعية)، سواء جرى بالإغواء أو القمع، ليس مرشّحاً للنجاح، لكنه لن يمر من دون خسائر، فالخوف الرسمي العربي الواسع من أي حضور للإسلام في الفضاء العام بمعناه الواسع يتلاقى مع رغبة صهيونية – غربية في إنهاء أشكال مقاومة المشروع الصهيوني، وكل أشكال مقاومة فرض نمط الحياة الغربي. ورغبة بنيامين نتنياهو في التطبيع بابا مودي رسالة دولته قائلاً: «نحن نستحقّ دولة، فنحن الوحيدون في العالم الذين يقولون الحقيقة عن الإسلام، ولا يخلطونه بالسياسة»، تتقاطع الفكرة مع سياقات عديدة دينية وسياسية، تشغل الغرب وإسرائيل، وبالقدر نفسه، نخبأ ثقافية وسياسية عربية تحارب منذ ما يزيد عن قرن لطي صفحة 1400 عام من فهم الإسلام وتفسيره.

وفي مشروع الدولة البكتاشية مفارقات، أولاها أن الذين حاربوا عقوداً بعض الدين من أن يكون فاعلاً سياسياً (من انقلاب عسكر الجزائر على نتائج انتخابات 1992، إلى «الثورة المضادّة» لإجهاض ثورات شعبية أتت بإسلاميين إلى السلطة)، هؤلاء يسعون الآن إلى إنشاء نموذج «واجهته دينية»! وثانية المفارقات أن «الإسلام الفردي» الذي يفكك أي روابط «أفقية» تشمل أشكالاً من التجمع أو التنظيم أو العمل الجماعي لتحقيق أي أهداف دينية، ينشئ «دولة» يحكمها زعيم طريقة صوفية، لتحقيق هذا الهدف، والمفارقة الثالثة أن جهوداً طويلة، فاشلة طبعاً، لنفي أن يكون في الدين أي حقيقة تتصف بالقداسة والثبات ولا تقبل التأويل، هم أنفسهم يدّعون

كي لا تكون الضحية التالية

حلمي الأسمر

حين «يتضامن» غربي، أميركي أو أوروبي، أو حتى من أفريقيا أو آسيا، مع ضحايا الهمجية الصهيونية في فلسطين أو لبنان، فهذا يعني أن هذا الشخص يشعر أن هناك كسراً للقواعد الأخلاقية التي تعلّمها أو اكتسبها، فوقفها من حقّ الإنسان أن يعيش بكرامة، وقبل هذا أن يعيش أصلاً، لا أن يُقتل بقصف بمسيّرة أو قذيفة طائرة أو سحقاً تحت سقف منزله، أو أن يتحوّل إلى دمية بين يدي سجّان سادي يذيقه ألواناً من العذاب فقط لأنه وقع أسيراً بين يديه، ولا يملك القدرة على الدفاع عن نفسه. تلك المشاعر التي تنتاب المتضامن الإنسانية بحتة، غير ممزوجة بما أشعر به أنا العربي اللاجئ من يأفا إلى للمرّة الثانية، أو الثالثة حتى قبل أن أولد، فقد لجأت عائلتي من قرية جميلة وادعة تبعد قليلاً عن يافا قبل أن ترى الحياة (أصبحت أراضيها في ما بعد أغلى بقعة في فلسطين المحتلة)، فهي حالياً جزء مما يسمّيها العدو تل أبيب الكبرى، أو مركز الكيان!). وشاء القدر، أو الاحتلال على وجه التعيين، ألا أولد في بيتنا الواقع الحالي القائم بين بحر ونهر، بل في «خيمة» أقيمت على عجل، لإيواء من لجأوا فراراً من القتل، على بعد نحو 60 كيلومترا من مسقط رأس والدي، في بيتنا الأول، وهي المسافة التي تفصل بين يافا ومخيم طولكرم، ويبعدان بعضهما عن بعض أقل من ساعة بالسيارة، لكنها مسافة ضوئية، كانها تفصل بين جرمين سماويين، فبين «تل أبيب» والمخيّم الذي تحول إلى ساحة قتال اليوم أكثر من نصف قرن من الأحداث.

مفهومٌ أن يتضامن ذلك «الغريب» مع غريب آخر وقع ضحية احتلال، لأسباب إنسانية بحتة، لكن لـ«تضامني» مع الحدث ذاته كيمياء أخرى معقدة كثيراً، ليس فقط لجهة أن تلك الضحية التي أتضامن معها عاشت تقريباً بعضاً من المراحل التي عشتها فقط، لا، بل لأنني ذُقت بعضاً مما ذاقت، والأهم والأخطر أنني لا أملك إي ضماناتٍ ألا أكون الضحية الثانية، وهذا بيت القصيد.

وبحسبة بسيطة تأخذ بالحسبان ما يقذف به في وجوهنا غلاة الصهاينة صباح مساء، فلا يوجد عربي واحد بين النيل والفرات في منأى من أن يكون الضحية القادمة، فتلك الأرض التي يسكنها أهلها منذ قرون طويلة باتت حلم الصهاينة من أبناء «أبراهام» إقامة حلم مستند إلى نبوءة أو «وعد» توراتي من إلههم «يهوه» بأن تكون «وطنهم». ومع ازدياد «خضوع» أنظمة الحكم في تلك البلاد وما يبدو تساهلاً مع الاحتلال وتقبّلاً له بوصفه واقعاً لا سبيل لتغييره، زادت شهيّة التوسّع وتحقيق وعد يهوه، فأنت حين ترى من يفترض أنه خصمك وعدوك يعاملك وكأنك صاحب البيت لا مغتصبه بكل ودّ وترحاب، ستبدأ على الفور التفكير في كيفية طرده من البيت أو حتى قتله ورميه خارجاً، خصوصاً حين يكون الطرف الآخر مدجّجاً بثقافة سادية تنظر إلى الآخرين بوصفهم عبيداً له، لا أبعدَ من بتر أذرع طهران في المنطقة باتجاه ضرب المشروع النووي وتغيير النظام. كما أن عملية 7 أكتوبر وصواريخ حزب الله، والانتقام الإيراني الرمزي لمقتل قادة الحرس الثوري وحزب الله، ذلك كله يظهر نقاط ضعف في منظومة الردع الإسرائيلية - الأميركية، يضاف إلى ذلك قتل ثلاثة من طواقم الخدمة الأميركية في هجوم على قاعدة في الركبان في الأردن. وهذا يدفع واشنطن باتجاه تعزيز قواعدها العسكرية في المنطقة، واستقدام منظومة

> نحن أمام عدو لا يقبل شركاء، بل عبيداً أو من دون ذلك

عليها جماعة وعد يهوه؛ بهذا المعنى الذي استعرق شرحه الفقرات أعلاه، يصبح «التضامن» ليس واجباً فقط، بل فرض عينٍ على كل من يقيم على تلك الأرض «الموعودة»، وهو في الحقيقة ليس تضامناً مع آخر، بل وقوفٌ مع الذات ودفاع عنها، إنه يشبه أن تهبّ لإطفاء الحريق عند جارك كي لا تمتدّ النيران إلى بيتك. لقد أنفقت جماعة وعد يهوه مالاً كثيراً، وبذلت جهداً هائلاً من الأوهام والأكاذيب والمفاهيم الخاطئة لتبقي من هم خارج دائرة «الصراع» المباشر الخدمة الأميركية في حالة رخوة من الرخاء والاطمئنان الكاذب، لتحييدهم وإبعادهم عن نصرة إخوتهم، بزعم أنهم خارج دائرة الخطر، مع أنهم في صلب هذه الدائرة، والدور قادم عليهم كي يكونوا الضحية التالية، إن لم يكن اليوم فغداً، وساعدتها في هذا الجهد «الجبار» آلة إعلامية لأنظمة تستمدّ من هذا الوهم نسغ بقائها، وديمومة «أمنها» المستمدّ في الأصل من أمن جماعة الوعد المزعوم، وتلك أكبر عملية نصب وتزييف مرّت بها بلادنا في العصر الحديث.

هل هناك أي ضمانة من النظام العربي الرسمي أن لا نكون نحن العرب الذين نقيم خارج دائرة النار الضحية القادمة للوحش الصهيوني الهائج؟ ماذا أعدّ هذا النظام لحمايتنا؟ هل بنى لنا خنادق؟ هل سلحنا؟ بل هل أطعمنا من جوع وأمننا من خوف؟ أيّ شرعية بقيت لهذا النظام كي ندين له بالولاء؟

(كاتب من الأردن)

ماذا تعرف هان كانغ عن غزّة؟

زياد بركات

لم تذهب جائزة نوبل للسلام إلى وكالة الأمم المتحدة لغوث وتشغيل اللاجئين (أونروا)، كما كان بعضنا يأمل، كما لم تُمنح للأمين العام للأمم المتحدة أنطونيو غوتيريس، فكلاهما يذكّران العالم بغزّة وهو ما لا يرغب به كثيرون. ذهبت الجائزة إلى منظمة منسيّة، وإلى منظمةٍ يابانية لا نعرف مدى تأثيرها، وما إذا كان يتخطى حدود بلادها، خاصة أنها تُعنى بعالم خالٍ من الأسلحة النووية، ولا يُعرَف كيف لمنظمة هذا شأنها أن تفلح في تحقيق أهدافها في وقتٍ لم تبقَ فيه دولة كبيرة لم تحُز سلاحاً نووياً، بما فيها كوريا الشمالية، وهي ليست كبيرة بل فق

إسرائيل والمسألة الشرقية الجديدة

برهان غليون

إسرائيل ليست خصما إلا بمقدار ما هي أداة في يد الهيمنة الأميركية (مصطفى الخروف/الأناضول)

دشّن انهيار السلطنة العثمانية في عشرينيات القرن الماضي حقبة جديدة، وأطلق صراعاتٍ تكاد لا تنتهي في عموم المشرق العربي، غالباً ما تختلط فيها النزاعات الداخلية على السلطة بالصراعات الدولية. لكن داخل هذه الصراعات متعدّدة الأطراف والأبعاد والمستمرّة منذ قرن ونيف، هناك دائماً صراع محوري تدور من حوله وتتهيكل به النزاعات الأخرى. بدأت هذه الحقبة بالصراع بين الدول الأوروبية، الفرنسية والبريطانية خاصة، على تقاسم أشلاء السلطنة ورسم حدود دولها، كما لا تزال قائمة. أعقبه الصراع بين الحركات الاستقلالية وسلطات الوصاية الاستعمارية، وانتهى بصراع محوري شقّ العالم بين قطبين شرقي وغربي، وأعاد تشكيل الخريطة السياسية والجيوسياسية داخل الدول التابعة، وفي ما بينها، فانقسم العالم العربي، كبقية مناطق العالم، بين نظم اشتراكية تابعة للمعسكر الشرقي وأخرى مرتبطة بالغرب ومستندة إليه في حماية حدودها وتنمية اقتصاداتها.

لكن انهيار الاتحاد السوفييتي في الحرب الباردة دشّن حقبة فريدة سيطرت فيها الولايات المتحدة على القرار وأجندة السياسة الدوليين، استغلتها واشنطن لتحقيق مكاسب متعدّدة الأشكال على حساب جميع الدول والشعوب الأخرى، وفرضت نفسها قطبا أوحد يملك حرّية التصرف الكامل في شؤون العالم، على المستوى الكلي وعلى مستوى الأقاليم، بل الدول والجماعات القبلية والأحزاب السياسية. لكن «القيادة الأميركية للعالم»، كما لم يكف عن التذكير بذاك الشعار القادة الأميركيون بذريعة الحفاظ على السلام والاستقرار العالميين، لم تكن تعني، في الواقع، سوى إعطاء الأسبقية للمصالح الأميركية الاستراتيجية والنفعية على حساب الدول قاطبة، بما في ذلك الحلفاء الأوروبيين.

كانت نتائج هذه القيادة كارثية على الصعيدين الإقليمي والعالمي، فقد لعبت السيطرة الأحادية التي تمتّعت بها واشنطن بعقول الرؤساء الأميركيين. وأدّى استخدام القوة المفرطة في التدخلات العسكرية والسياسية والاقتصادية، التي أصبحت أسهل وسيلة للضغط على الحكومات والدول الرافضة التبعية، إلى تدمير التوازنات الدولية وزعزعة استقرار المجتمعات وتفكيك الدول وتقويض سلطة القانون الدولي، كما أظهرت ذلك حالات العراق وأفغانستان وفلسطين التي تحوّلت فيها الحرب الاستيطانية إلى حرب إبادة جماعية في غزّة.

وبدل أن تساهم الحرب ضد الإرهاب التي فرضها الأميركيون على الدول لإكراهها على الالتحاق بواشنطن، والقبول بالعمل على أجندتها، في تعزيز السلام والاستقرار في الشرق الأوسط، عملت على توسيع نطاق انتشاره في العالم أجمع، وعمّقت الشك بالقيادة الأميركية، والهدف من تدخّلاتها العشوائية.

وفي سياق التآكل المتزايد لشرعية القيادة الأميركية العالمية وتصعيد الاعتراضات على سياساتها التدخلية، بما في ذلك لدى الحلفاء الأوروبيين، تطوّرت في مختلف مناطق العالم، ولدى الدول الصناعية الصاعدة خاصة، آمال التحرّر من القبضة الأميركية القاسية، وتشكيل تجمّعات تحمي مصالحها، كتجمّع بريكس واتفاقية شنغهاي وغيرهما، في وقتٍ دخلت فيه العلاقات الأميركية الروسية والصينية في حالة من التوتر، إن لم يكن الحرب كما في أوكرانيا، وإعادة مناخات الحرب الباردة بشكل أكثر حدّة وخطورة.

■■■

وفي منطقة الشرق الأوسط التي تقدم الدليل الأبرز على إفلاس السياسات الأميركية التي أنتجت من الكوارث أضعاف ما حلّت من المشكلات، لم يعزّز تدمير العراق وتحييده الاستقرار الذي ادّعته واشنطن في هذه المنطقة الحيوية. بالعكس، لقد فتح نزع الصمّام العراقي أبواب الجحيم على الدول العربية والخليجية، بإتاحته لطهران الخروج من معزلها التاريخي والاندياح في مسرح الشرق الأوسط بكل ما تملكه من قوة. لقد قدّم لها المشرق العربي على طبق من ذهب تحرّك فيه كما تشاء، لا من أجلِ فكّ الحصار المفروض عليها فحسب وإنما من أجل أن تفرض نفسها شريكا لواشنطن في تقاسم ثروات منطقة كانت حكرا شبه كامل لها.

ومنذ عقدين، أصبح المشرق العربي ضحية الصراع الإيراني الأميركي، وفقد أي إرادة مستقلة، أو أجندة سياسية واستراتيجية. وفي هذا الصراع، تستخدم طهران استراتيجية النفس الطويل والحرب غير المباشرة وغير النظامية التي تعتمد على استغلال موارد (وتجنيد بناء) الشعوب التي زعزع الأميركيون أنفسهم، وبمشاركة حلفائهم المفضّلين في تل أبيب، استقرارها، فلا تزال طهران تخوض، منذ بداية القرن، من خلال وكلائها المحليين، عراقيين ولبنانيين ويمنيين وسوريين وأفغان وباكستانيين وغيرهم، حرباً واسعة النطاق وغير مسبوقة، هدفها زرع الفوضى وتقويض أركان الدول الضعيفة وتفكيك مجتمعاتها وابتلاعها مستفيدةً من الفراغ الكبير الذي أحدثه تحييد مصر وتدمير العراق وإلحاق سورية بحكم أسرة محلية عميلة ومتوحشة. ولا تزال المنطقة المشرقية تعيش على وقع الصراع بين طهران ومن ورائها الصين وروسيا في الظل من جهة، والولايات المتحدة وحربتها الإقليمية إسرائيل من جهة أخرى، من أجل إعادة تشكيل الشرق الأوسط وفرض إرادة كل منهما على شعوبه والتحكّم بموارده ومصيره.

تعتقد إيران وتعمل على أساس أنها هي القوة الأكبر، الجيوسياسية والثقافية والتقنية، في المنطقة، ومن حقّها أن تكون صاحبة الدور الأول في صوغ أجندتها السياسية في مقابل أو بموازاة أو بالاشتراك مع الولايات المتحدة والغرب، وأن يكون لها النفوذ الذي تحتاجه وتستحقّه، ويعكس قوتها الحقيقية الظاهرة والكامنة. والرهان الأكبر في هذا الصراع هو السيطرة على منطقة الخليج العربي التي لا تضم أكبر ثورة مركّزة في منطقة صغيرة وهشّة في العالم، منجمية ومالية، فحسب، وإنما موقعاً جيوستراتيجياً استثنائياً أيضا. فبخلاف ما يبدو للوهلة الأولى، ليس الصراع الجاري في نظر طهران بين العرب والإيرانيين، وإنما بين طهران التي تعتقد أن المشرق مجالها الحيوي الطبيعي وجزءاً من متاعها من جهة، والولايات المتحدة ومن ورائها الغرب حليفها من جهة ثانية. وهي ترى في نفسها الوريثة الشرعية لحركات التحرّر والثورات ضد الهيمنة الأجنبية، وأن من واجبها ودورها قيادة شعوب المنطقة للتحرّر من هذه الهيمنة الأميركية، وليس هناك في المنطقة من يمكن أن ينافسها أو يستحقّ أن يكون ندّا لها، لا تركيا ولا السعودية ولا مصر ولا سورية ولا العراق، وهي، في المقابل، الند الوحيد في الشرق لأميركا، التي تحول دونها واحتلال موقعها الطبيعي الذي ينذرها له مركزها الديني ومكانتها الثقافية وإنجازاتها العسكرية والتقنية. أما إسرائيل فهي ليست خصماً إلا بمقدار ما هي أداة في يد الهيمنة الأميركية. الخصم الحقيقي هو واشنطن، وإذا احتاج الأمر، لا شيء يمنع طهران من أن تناور مع تل أبيب وتتعاون معها، إذا اقتضت الضرورة، كما فعلت في أثناء الحرب الإيرانية العراقية، لتحقيق أجندتها في المنطقة. وبالمثل، ليست السيطرة على العراق وسورية ولبنان واليمن مهمّة وأساسية إلا بمقدار ما تمهد الطريق للسيطرة على الجزيرة العربية التي تجتمع بها مصادر الشرعية الرمزية الدينية والثروة الاستثنائية والهشاشة أو الفراغ الاستراتيجي.

هذا يعني أيضا أن طهران لا ترى في الدول العربية منافساً أو خصماً ولا طرفاً في الصراع الدائر، إنما طريدة سائبة، يتنازع الجميع عليها، وهي الأولى بها جغرافيا وتاريخيا ودينيا، لا الغرب ولا روسيا ولا الصين أيضا. وكما أنها لا ترى في النخب العربية الحاكمة نداً يستحق الاعتبار، وإنما عملاء للغرب وأدوات في خدمته، فهي لا تنظر إلى سكّانها بوصفهم شعوباً لها مطالب ومصالح وتطلعات وأجندات تنموية أو سياسية يجب احترامها أو أخذها بالاعتبار بالحدّ الأدنى، وإنما تنظر إليها بوصفها أدوات لخدمة المشروع الإسلامي/الإيراني، أي الإمبرطوري. وليس من مهامّها اليوم تحقيق التنمية أو بناء الديمقراطية أو الحديث في حقوق الإنسان، إنما التمرّد على حكوماتها ودولها والالتحاق بالمليشيات الإيرانية والانخراط معها لإلحاق الهزيمة المنكرة بالغرب. وينطبق هذا على فلسطين التي لا ترى طهران في قضيتها سوى تفصيل صغير تستفيد من تبنّيه لخدمة قضيتها الكبرى. وقد حان الوقت، مع أفول الهيمنة الغربية، كي تستعيد مكانتها وتؤكّد دورها بوصفها الوريث الشرعي للإمبرطورية الإسلامية التاريخية التي أخفقت في تجديدها في العقود الماضية الحركات القومية العربية والتركية. هذا هو التفكير الذي يقود سياستها الإقليمية والدولية، وما يفسّر الاستثمار المركزي في الصناعات والتنظيمات العسكرية والقتالية بما في ذلك مشروع الصناعة النووية. فهي الوحيدة التي تستطيع أن تحقق اليوم الحلم العظيم الذي أخفقت في إنجازه القومية العربية، وتخلت عنه الحركة الكمالية التركية، وهو تحرير الشرق من التبعية التاريخية للغرب وتحويل المنطقة قوّةً مستقلةً صاحبة قرارها وشريكاً ندّاً في صياغة القرارات والسياسة الدولية. لذلك لا ترى طهران نفسها أيضا أقل أو أدنى مرتبة استراتيجية من الصين أو روسيا. وهي تتنازع معهما أيضا في إطار التحالف التكتيكي الذي تقيمه معهما ضد الهيمنة الغربية. وفي هذا الصراع، تمتشق طهران ورقتين حاسمتين للشرعية في تجسيد وقيادة هذا المركز الإمبرطوري في المشرق مقابل المراكز الأخرى العالمية، هما: الإسلام وما يمثله من مصدر عقائدي وإلهامي ومن إرث حضاري وكتلة بشرية كبرى تنشد الاعتراف والاحترام والمشاركة في صناعة المصائر العالمية للبشرية. والقضية الفلسطينية التي تجسّد صراع الشعوب ضد آخر قلاع السيطرة الاستعمارية الاستيطانية الغربية، وما تمثله من قضية إنسانية عادلة وتحدّيا مصيريا استراتيجيا لشعوب المنطقة وقبلة دينية متعدّدة الأطراف.

> لا ينبغي أن نتوقع نهاية لعهد الفوضى والنزاعات متعدّدة الأقطاب وزعزعة الاستقرار والدمار، قبل أن ينجح العرب والخليجيون أولاً في حل نقطة الضعف الرئيسة التي حولتهم إلى طريدة تتنازع عليها الدول

> لم تولد إيران التوسعية والمتمرّدة على الغرب وشعوب المنطقة من عدم. إنها صعدت على أنقاض الخراب الذي خلّفه الاجتياح الأميركي الإسرائيلي للشرق الأوسط العربي على مدى عقود

■■■

لم تولد إيران التوسعية والمتمرّدة على الغرب وشعوب المنطقة من عدم. إنها صعدت على أنقاض الخراب الذي خلّفه الاجتياح الأميركي الإسرائيلي للشرق الأوسط العربي على مدى عقود. ولم يتغذّ وحش التغول الخامنئي من الفراغ، وإنما على ما تركه التغول الأميركي الإسرائيلي من جثث الشعوب والقضايا العادلة المغدورة. وهو لا يعادي واشنطن ولا إسرائيل الممثلة لها في المنطقة، وإنما يقاتل من أجل زيادة حصته من الفريسة العربية، فما يوحّد بين طهران الخامنئية وواشنطن الإمبريالية هو التفاهم على تحييد المشرق العربي ونزع أنيابه وتفكيكه ما أمكن لتسهيل ابتلاعه، أما ما يفرّق بينهما، فهو الخلاف على اقتسام الغنائم والمصالح المتنازع عليها.

لذلك، ليس هناك أي سببٍ كي تسعى أميركا لتدمير مشروع إيران في المنطقة، لأن إيران لا تهدّد وجودها، وإنما تتنازع معها على فريسةٍ عربية من الممكن بسهولة التوصل إلى قسمة «عادلة» فيها وتخادم دائم ومثمر طويل المدى، فهي تحتاجها بمقدار ما تتنافس معها. وليس هناك شكّ في أن طهران وواشنطن نجحتا من خلال هذه العلاقة في تقسيم العالم العربي إلى معسكريْن تابعين لهما وأدوات في خدمة استراتيجيتهما. وكما أن واشنطن تستطيع، عند اللزوم، أن تجرّ طهران إلى طرفها بمساومتها على مكانتها ومصالحها في المشرق على حساب العرب، فإن طهران لن تدخل في صراع مع واشنطن، ولا مع ذراعها في تل أبيب، وتدع الطريدة العربية تفلت منها. إنها لا تبحث أبداً عن حرب مع الولايات المتحدة، وإنما عن التفاهم معها على تقاسم المصالح والنفوذ في المنطقة التي لا تزال واشنطن تصرّ على احتكار السيطرة فيها وعليها. وهذا هو هدف استراتيجية الحرب الطويلة وغير النظامية التي تمهّد في مرحلة تالية لمفاوضات، وقد بدأت عمليا، ومن ثم للتعاون على إدارة المنطقة. مشكلة طهران أن واشنطن كانت ترفض أي مشاركة لها معتدّة بقدرة إسرائيل على ردع جميع المطالبين بها، محليين كانوا أم أجانب.

لكن بالرغم من عدم التوصل إلى اتفاق، نجحت طهران وواشنطن بتنازعهما في تقسيم العرب بينهما وتجنيدهم في صراعهما الإقليمي. وكلاهما واثقة من قدرتها على تمويل الصراع طويلا على حساب العرب ومن جيوبهم. ويمكن القول إن نصف دول المشرق العربي قد سقطت في الأسر من خلال هذا الصراع. أما الخليج الذي هو درّة العقد، ومن الصعب على واشنطن أن تسمح بالتقاسم فيه، فهو يواجه معادلة صعبة. فكما أن الانحياز لأميركا لا يقدّم أي حماية جدّية يشكل الرهان على تحييد إيران بالحوار أو المفاوضات، وهذا لا يمكن للاتفاقية السعودية الإيرانية برعاية الصين أن تحوله الى حقيقة، فايران لن تتوقف عن متابعة خطّتها للهيمنة الإقليمية والتي تمر حتما بتدمير دول المشرق العربي وتحويلها، كما حصل لعدد منها، إلى أدوات في آلتها الحربية غير النظامية وعبئا على الغرب. وبخلاف ما يتمنّى بعضهم، لن تعمل طهران لصالح العرب وفلسطين وتخسر رهاناتها مع أميركا والغرب. بل إنها لن تتردّد في التحالف مع تل أبيب عندما يتم التفاهم مع واشنطن على اقتسام الغنائم العربية. كما أن واشنطن لن تغامر بمعركة مع طهران التي تسعى إلى تجنّب خرمشاتها لصالح أي دولة أو قضية عربية، ولكنها توظف التهديد الإيراني لدفع الخليج إلى الالتحاق بإسرائيل. والولايات المتحدة والغرب اللذان فقدا المبادرة الدولية، حتى لو بقيا يمثلان القوة العسكرية والاستراتيجية الأكبر في العالم، لن يحميا الخليج وثرواته وأنظمة حكمه ونخبه الحاكمة، ولكنهما سوف يستفيدان من الضغط الإيراني عليه، ليزيدا من ابتزازهما له واستغلال قلقه وخوفه من أجل انتزاع مزيد من التنازلات وإجباره على التطبيع المجاني مع إسرائيل، الوكيل الحصري للمصالح الأميركية في المشرق. وعندما تحين الساعة، سوف يتخلى الغرب عن إسرائيل نفسها، ويسعى إلى حماية مصالحه في المنطقة بالتحالف مع الأقوى، أي مع الشيطان.

■■■

يفتح ما حصل من مقاومة الفلسطينيين الأسطورية وتضحياتهم الاستثنائية، ومن نكسة عسكرية وسياسية وأخلاقية حقيقية لإسرائيل، معركة موازية للمعركة الدائرة منذ عقود على السيطرة على الشرق الأوسط، هي معركة فلسطين، ويدفع إلى إعادة ترتيب أجندة السياسة الإقليمية حاليا، على الأقل لصالح المسألة الفلسطينية. هكذا تتحوّل فلسطين من ذريعة تستخدم في الصراع الإيراني على النفوذ إلى قضية محورية لم يعد من الممكن أن تستخدمها طهران للدعاية والضغط فحسب. وهذا يعقّد المسألة على طهران، ويزيد من تكاليف الصراع الذي تخوضه منذ عقود. وهو يعقد المسألة أيضا على واشنطن، فضرب هيبة إسرائيل خسارة استراتيجية كبيرة لأميركا وإضعاف لموقفها الإقليمي. ثم إن ما حصل يقدّم بالإضافة إلى ذلك فرصة استثنائية للحكومات العربية، إذا ما عرفت استخدامها، لإعادة موضعة نفسها في الصراع الثنائي، والدخول فيه طرفاً له مصالح يدافع عنها، بدل أن يكون كما هو حالياً طريدة «يتهاوش» عليها الآخرون. ويتوقف الأمر على طبيعة الدور الذي سوف تلعبه الحكومات العربية في تحديد المخرج من هذه الحرب، فإذا نجحت في وضع حجر الأساس لمشروع دولة فلسطينية تضع حدّا للتغوّل الإسرائيلي، وتحرّر العرب من الحرب الدائمة منذ 75 عاماً، سوف تفقد إيران أهم مصدر من مصادر دعايتها ومناورتها الاستراتيجية. وبالعكس، إذا قبل العرب بالتطبيع المجاني مع إسرائيل إرضاء للأميركيين، فسيتضاعف رصيد طهران السياسي في حربها مع واشنطن على اقتسام مصالح العرب وإمكانية الوصول إلى تسوية أميركية إيرانية على حسابهم، ويتعمق تماهي واشنطن مع تل أبيب.

يبيّن ما سبق ذكره أن ما يعيشه المشرق أزمة جيوسياسة بنيوية، وبالتالي لا ينبغي أن نتوقع نهاية لعهد الفوضى والنزاعات متعدّدة الأقطاب وزعزعة الاستقرار والدمار، قبل أن ينجح العرب والخليجيون أولا في حل نقطة الضعف الرئيسة التي حولتهم إلى طريدة تتنازع عليها الدول، بدل أن يكونوا حسب وضعهم ومواردهم المادية والبشرية الفاعل الرئيس في منطقتهم، وهي الفراغ الاستراتيجي والافتقار إلى القوة الذاتية الحامية والرادعة. ولن يتحقّق هذا من دون مراجعة جذرية لسياسات العرب الأمنية الإقليمية وتجاوز الانكفاء على الحسابات القُطرية، والرهان على تخزين السلاح بدل تطوير استراتيجية مشتركة تعاون استراتيجي قوي يؤمن القوى المادية والبشرية لتشكيل قوة ذاتية حامية للمصالح الخليجية والعربية. هذا الفراغ الاستراتيجي هو ما يسمح لواشنطن بأن تغرّز مخالبها في جسد الدول العربية، ويغري إيران، وربما غيرها في المستقبل، بالتنافس معها على الفريسة العاجزة. فمن دون حلّ هذه العقدة، لن يكون المستقبل مختلفاً عن الماضي، بل ربما أسوأ بكثير. ولا تنفع الثروة الكبيرة في ردّ هذا التحدّي لأنها، بالعكس، هي التي تثير لعاب الفاتحين.

هل هذا ممكن اليوم؟ نعم. لماذا يكون ممكنا الاعتراف باسرائيل، وليس ممكنا تعميق التعاون العربي؟ لماذا تستطيع إيران أن تخوض حربا بالوكالة ضد أميركا في المنطقة، وتنازعها على اقتسام المصالح العربية، ولا يستطيع العرب التفاهم على إيجاد مركز قوة لحماية مصالحهم تجاه الأميركيين والإيرانيين المتنازعين على ثرواتهم والمتفاهمين على تجريدهم من سيادتهم؟ أعتقد أنه لا يزال ممكنا اليوم، لكنه لن يكون كذلك بعد حين. كل ما يحتاج إليه التغلّب على الخوف المزمن، وتجاوز انعدام الثقة بالذات والآخر القريب والشعور بالمسؤولية إزاء ما تعانيه شعوب المنطقة من موت وتشرّد وبؤس، وما يتهدّد وجودها ذاته من مخاطر. وأخيراً، تجنّب تكرار سيرة ملوك الطوائف الأندلسيين ومصيرهم.

(أكاديمي وأول رئيس للمجلس الوطني السوري)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير معن البياري ■ مدير التحرير ارنست خوري ■ المدير الفني إميل منعم ■ السياسة جمانة فرحات ■ الاقتصاد مصطفى عبد السلام ■ الثقافة نجوان درويش ■ منوعات ليال حداد ■ المجتمع يوسف حاج علي ■ الرياضة نبيل التليلي ■ تحقيقات محمد عزام ■ مراسلون نزار قنديل

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، لندن
Ealing Cross, Second floor, 85 Uxbridge Road, London, W5 5TH
Tel: 00442045801000
■ مكتب الدوحة
الدوحة ـ برج الفردان ـ لوسيل ـ الطابق الـ 20 ـ
هاتف: 0097440190600
■ مكتب بيروت
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads